

عندما يقتل الجهل البراءة:
نداء عاجل لكسر الصمت

التربية الجنسية في الإسلام

ضرورة شرعية لحماية الأبناء

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان



تصدر عنوان "عندما يقتل الجهل البراءة" مواقع التواصل الاجتماعيّ وضجّ بواقعة قتل حدثت في إحدى ليالي الدخلة، عندما تحولت فرحة عريس إلى جحيم من الشك والغضب، إذ إنه لم يجد ما توقعه من علامات "الشرف" عند زوجته، فسيطرت عليه نوبة عمياء من الغيرة والجهل، وفي لحظة واحدة، انتهت حياة فتاة بريئة على يد زوجها الذي لم يعلم ويفهم أو بالأحرى لم يملك الثقافة الصحيحة حول ما قد يواجهه من سيناريوهات تتعلّق بهذه الليلة من الطرف الآخر.

هذه القصة المأساوية ليست خيالاً، إنّما هي واقع مؤلم يتكرّر في مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة بسبب غياب التثقيف الجنسيّ الصحيح، وانتشار المفاهيم الخاطئة، والصمت المطبق حول موضوعات حيوية تمسّ جوهر الحياة الإنسانية، فالجهل بالثقافة الجنسية ليس مجرد نقص في المعلومات، بل خطر حقيقي يهدّد حياة أبنائنا وبناتنا، ويدمرّ الأسر، ويشوّه فهمنا لتعاليم ديننا الحنيف الذي كرّم الإنسان وأحاطه بتوجيهات حكيمة في جوانب حياته كلّها، فالحياء في هذه المواضيع لا يعني الصمت ولا يقتضيه، إذ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: "إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ سِتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ"، فالحياء مطلوب، ولكنه لا يمنع التعليم بل يمنع الإسفاف.

لقد تناول الإسلام موضوع الجنس بصراحة ووضوح، دون خجل أو مواربة، فالقرآن الكريم يتحدث عن العلاقة الزوجية بوصفها "سكينة ومودة ورحمة"، والسنة النبوية مليئة بالتوجيهات العملية حول آداب المعاشرة الزوجية، فالحديث عن الأمور الجنسية ضمن الإطار الشرعي والتربوي الصحيح ليس عيباً، بل ضرورة دينية وإنسانية، فلا مكان للحياء في تربية النشء حين يتعلّق بأمر الدين! إذ قد وجب تعليم الأبناء منذ مرحلة الطفولة المبكرة وطولاً لاستعدادهم للزواج كافة المفاهيم والمصطلحات

الجسدي والنفسي، بصورة مناسبةٍ لِسِنَّهم وبضوابط محكمة بالشرع، ووجب أيضاً اقتران هذه التربية بإتاحة المجال لهم للأسئلة، فالثقافة الجنسية المسؤولية حق لهم، ودرع يحميهم.

هذا وقد وضع الإسلام حدوداً واضحة بين الحلال والحرام، والمباح والمحظور، وفي الوقت ذاته لم يحرم التعلّم والفهم، إنّما على العكس تماماً فقد حثّ على طلب العلم في كل المجالات، ومن بينها فهم الجسد وطبيعة الإنسان، فما الهدف الأساسي من هذا الفهم وهذه الثقافة سوى تحقيق قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾* [الإسراء: 24]، من خلال تقديم رعاية شاملةٍ تعصم الأبناء من الانحراف.

ولكون التنشئة الجنسية السليمة للأطفال تتميز بسمات وخصائص تختلف من فئة عمرية لأخرى، فإنّ كل مرحلة تتطلب أساليب ومعلومات مناسبة لعمر الطفل ومستوى نضجه، لذلك فإنّه من المهم أن تتفهم الأسر هذه المراحل لتقدّم التوجيه المناسب في الوقت المناسب، فالتربية الجنسية عملية تدريجية تتطور مع نموّ الطفل، وتنقسم إلى مراحل متتالية تبدأ من الطفولة المبكرة وتستمرّ حتى المراهقة، وهذه المراحل متدرجة ومتراصة، تهدف إلى بناء فهم سليم وآمن لدى الأطفال حول أجسامهم وحدودهم الشخصية، وهي مصممة لتلبّي احتياجات كل فئة عمرية بما يناسب قدراتها على الفهم والاستيعاب.

وتبدأ هذه المراحل **بالمرحلة الأولى التي ترتبط بالطفولة المبكرة (3-6 سنوات)**، وهي مرحلة حساسة، ويتم فيها التأسيس الأول للوعي الجسدي، إذ يبدأ الطفل باكتشاف جسده والسؤال عن الاختلافات الجسدية بينه وبين الآخرين، والمطلوب هاهنا تقديم مسميات صحيحة للأعضاء التناسلية دون خجل أو استخدام أسماء مستعارة، غرس مفهوم العورة والحياء الطبيعي، تعليم الطفل حماية جسده من التحرش، ونعلّمه أنّ أعضاءه التناسلية خاصة، وأنّه لا يحقّ لأحد لمسها أو رؤيتها إلا الوالدين أو الطبيب عند الحاجة، إلى جانب الإجابة على الأسئلة البريئة بصدق وبساطة.

ومثال تلك المرحلة: عندما يسأل الطفل "من أين جئت؟"، فالإجابة الصادقة المناسبة لعمره: "من بطن أمك، وضعك الله هناك بعد أن تزوجت من والدك"، ولا نحتاج لتفاصيل معقدة، ولا نحتاج للكذب أيضاً.

ومن ثم تأتي المرحلة الثانية المرتبطة بالطفولة المتأخرة (7-10 سنوات)، وفيها يتمّ بناء الأسس الأخلاقية والعلمية، إذ إنّ الطفل في هذا العمر يزداد فضوله، ويبدأ بفهم المفاهيم المجردة، فيكون التركيز على

تقديم

شرح مبسط لوظائف الأعضاء التناسلية، وتعميق مفهوم الحلال والحرام في العلاقات، وتوضيح آداب التعامل مع الجنس الآخر، وتعليم النظافة الشخصية والطهارة، وتعليمه آداب الاستئذان، وغضّ البصر، واحترام خصوصية الآخرين، مع التركيز على أنّ جسد الإنسان أمانة من الله يجب المحافظة عليها.

ومثال تلك المرحلة: أنْ نشرح للطفل أنّ الله خلق الرجل والمرأة مختلفين ليكمّلا بعضهما البعض برابط الزواج الذي باركه الله، ونوضّح أنّ الأطفال يأتون عندما يتزوج الرجل والمرأة ويحبّان بعضهما. وهنا دور المرحلة الثالثة التي ترتبط بسن ما قبل المراهقة (11-13 سنة)، وفيها يتمّ إعداد الأطفال للتغيرات الجسدية والنفسية، وهي مرحلة حرجة تتطلب تحضير الطفل لما سيواجهه من تغيرات، ويتمّ فيها تخصيص كل جنس بما يحتاجه من معرفة، فللفتيات يتمّ شرح دورة الحيض بتفصيل مناسب قبل حدوثها، وشرح التغيرات الجسدية المتوقعة من نمو الثديين، تغيير الصوت والطول، وأحكام الطهارة والصلاة أثناء الحيض، والتركيز على الاهتمام بالنظافة الشخصية، وللفتيان يتمّ شرح الاحتلام، والتغيرات الصوتية والجسدية، وأحكام الغسل والطهارة، والتعامل مع المشاعر الجديدة، وآداب التعامل مع الجنس الآخر.

ويكون منهجنا هنا الحديث بوضوح عن هذه التغيرات كجزء طبيعي من خلق الله ونموّ الإنسان، فنؤكد على أنّ هذه التغيرات تحضّر الشخص ليصبح بالغاً مسؤولاً، وأنّ مع هذه المسؤولية تأتي مسؤوليات دينية وأخلاقية جديدة.

وفي المرحلة الرابعة التي تعكس فترة المراهقة المبكرة (14-16 سنة)، تظهر هناك صراعات بين الرغبات والتوجيهات الأخلاقية، فتبدأ في هذه المرحلة الرغبات الجنسية في الظهور، وهنا يحتاج المراهق إلى توجيه حكيم، فوجب هاهنا أن يتمّ توضيح طبيعة الشهوة الجنسية وحكمة الله في خلقها وفهمها بشكل واضح دون تشويش، وتعليمه المراهقين طرق السيطرة على الرغبات، وفهم أنّها مقدّمات للزنا وخطورتها يجب أن تكون حاضرة ماثلة أمامهم بوضوح، مع بيان ما هي الأسس لبناء علاقات صحيّة مع الجنس الآخر ضمن الحدود الشرعية.

ويكون منهجنا هاهنا الشرح الواضح للمراهقين بأن الشهوة الجنسية ليست عيباً أو خطيئة، إنما هي غريزة طبيعية وضعها الله للحفاظ على النوع البشري، لكن الإسلام وضع لها ضوابط وحدوداً، ومنها تشريع الله للزواج كطريق شرعي لإشباع هذه الرغبة، وتوضيح أن الصبر والعفة حتى الزواج هو الطريق الصحيح، مع التأكيد على خطورة الزنا وما يؤدي إليه من مقدمات كالخلوة المحرمة، والنظرات المتبادلة، والمحادثات الجنسية، واللمس غير المشروع، فمن المهم بـمكان أن يكون هناك بيان وتوضيح لطرق السيطرة على الشهوة في هذه المرحلة العمرية، ومنها الصوم، وممارسة الرياضة، وتفريغ الطاقة في أنشطة مفيدة، والصحة الصالحة وتجنب المثيرات، والدعاء والذكر والتقرب إلى الله، وتجنب المحتويات الإباحية والمثيرة.

وتأتي المرحلة الخامسة بالمراهقة المتأخرة والشباب (17-25 سنة)، وهي مرحلة الإعداد للزواج والحياة الزوجية، وفي هذه المرحلة يكون الشاب أو الفتاة قريبين من سن الزواج، وهنا يتم التركيز على آداب الخطبة والتعارف الشرعي، وأسس اختيار الشريك المناسب، والتحضير النفسي والعملي للزواج، وفهم العلاقة الزوجية وآدابها، والتثقيف الزواجي من خلال شرح فكرة العلاقة الزوجية كعلاقة مقدسة تقوم على المودة والرحمة والسكن النفسي، وليست مجرد إشباع للرغبة وحسب، فيتم توضيح آداب المعاشرة الزوجية كما جاءت في السنة النبوية من أهمية الملاطفة والمودة، ومراعاة مشاعر الشريك وعدم الأنانية، والنظافة والتطيب، والدعاء والذكر، والعدل بين الزوجات في حالة التعدد.

هذا وفي كل مرحلة من مراحل التثقيف الجنسي فقد وجب أن يكون هناك تذكير مستمر بالخطوط الحمراء التي يجب تجنبها، وهي ما يمكن تصنيفه ضمن **المحرمات الشرعية** الواضحة، كالزنا وكل ما يؤدي إليه، واللواط والسحاق، والعادة السرية، والنظر المحرم والتلذذ بالمشاهد الجنسية، والخلوة غير الشرعية بين الجنسين، أو يمكن تصنيفه ضمن **المقدمات الخطيرة**، كالمحادثات الجنسية، وتبادل الصور أو المقاطع المثيرة، واللمس غير المبرر بين الجنسين، والخروج مع الجنس الآخر دون محرم، ومشاهدة المحتويات الإباحية، أو ما يمكن تصنيفه ضمن **السلوكيات المدمرة**، كإدمان المواقع الإباحية، والعلاقات السرية قبل الزواج، وتقليد الممارسات المنحرفة من الثقافات الأخرى، وإهمال الطهارة والنظافة، والغلو في الكبت أو الانفلات.

وفي المقابل هناك تذكير الخطوط الخضراء التي توصل لطريق آمن في ممارسات مقبولة سليمة، **من خلال التعليم والفهم**، كتعلم أحكام الطهارة والصلاة، وفهم حكمة الشريعة في تنظيم العلاقات، ودراسة آداب

الزواج من المصادر الموثوقة، واستشارة العلماء والمختصين عند الحاجة، ومن خلال **التربية العملية**، كممارسة الرياضة والأنشطة المفيدة، وبناء علاقات اجتماعية صحية، وتطوير المهارات والمواهب، والانخراط في الأعمال الخيرية والتطوعية، ومن خلال **التحضير للزواج**، بتعلم مهارات الحياة الأساسية، وبناء الاستقرار المالي والمهني، وتطوير الشخصية والأخلاق، وفهم المسؤوليات الزوجية والأسرية.

ومن هنا يبدأ دور الأسرة والمجتمع في صنع هذه الثقافة بخطوطها الحمراء والخضراء بشكل سليم ومنطقي ومقبول لدى الفئات على اختلافها، فكم من طفل وقع ضحية اعتداء جنسي لأن أسرته لم تُحصنه ضد المخاطر، وكم من مراهق عانى من اضطرابات نفسية وصحية قادته للإبتوائية والعزلة، حين فاجأه البلوغ بعلاماته دون فهم أو دعم من والديه، وكم من أسرة حارت وخُضبت قلوبها قلقاً تجاه سلوكيات جنسية طارئة ظهرت على أبنائها، دون أن تمتلك أدوات تفسيرها أو التعامل معها، فهذه الوقائع المؤلمة وغيرها الكثير تؤكد حاجة ملحة لضرورة اكتساب الأسر والمؤسسات التربوية والاجتماعية (الراعية للأطفال والمراهقين) المعرفة المتخصصة في التطور الجنسي، إلى جانب تطويرها للمهارات الكافية لمواجهة هذه التحديات.

فهناك دور حيوي للتنشئة المبكرة للأطفال في هذا الجانب، فبناء المهارات الاجتماعية المرتبطة بالنمو الجنسي - خاصة في مرحلة ما قبل البلوغ - يُعدُّ برنامجاً وقائياً يُرسخ في الطفل فهماً واضحاً للحدود الجسدية والاجتماعية، واحتراماً للقيم الأخلاقية السائدة، وقدرة على التوافق مع ضوابط مجتمعه.

فمسؤولية الوالدين تكمن في كونهما الخط الأول في التثقيف الجنسي، إذ عليهما أن يتحليا بالشجاعة للحديث مع أبنائهما بصراحة ووضوح، دون خجل أو تردد، فالصمت ليس حماية، بل تعريض للخطر، كما يجب على الوالدين أن يكونا مستعدين للإجابة على أسئلة أطفالهم، وأن يبادرا بطرح المواضيع المهمة في الوقت المناسب، كما يجب عليهما أن يكونا قدوة في التعامل مع هذه المواضيع بنضج وحكمة.

فإن كانت الأسرة تقدم الرعاية لأبنائها بحفظ جسدهم، وضمان نموهم، وتقديم التربية لضمان بنائهم ليصبحوا جيلاً قوياً سويّاً وقادراً على تقديم النفع لمجتمعاتهم، فإن هذا لا يكفي، فمن الضروري أن تقوم الأسرة بتربية أرواحهم وعقولهم وأخلاقهم بالعلم والقيم، وتوعيتهم بمخاطر الانحرافات الجنسية، من خلال تثقيفهم بالتربية الجنسية السليمة التي من شأنها أن تقيهم أخطار الجهل والانحراف، فكما أن الرعاية

فإن كانت الأسرة تقدم الرعاية لأبنائها بحفظ جسدھم، وضمان نموھم، وتقديم التربية لضمان بنائھم ليصبحوا جيلاً قوياً سويّاً وقادراً على تقديم النفع لمجتمعاتھم، فإن هذا لا يكفي، فمن الضروري أن تقوم الأسرة بتربية أرواحھم وعقولھم وأخلاقھم بالعلم والقيم، وتوعيتھم بمخاطر الانحرافات الجنسية، من خلال تثقيفھم بالتربية الجنسية السليمة التي من شأنها أن تقيھم أخطار الجهل والانحراف، فكما أن الرعاية الجسدية أساس مھم، إلا أن التربية الشاملة - بما فيها التوعية الجنسية المناسبة لكل مرحلة عمرية وفق التعاليم الإسلامية - هي ما يبني شخصية متوازنة وواعية.

ومن ثم يأتي دور المؤسسات التعليمية، من مدارس وجامعات، إذ يجب عليها أن تقوم بدور مكمل لدور الأسرة، من خلال تقديم برامج تثقيفية علمية ومتوازنة تتناول هذه المواضيع من منظور إسلامي صحيح، إلى جانب دور مؤسسات المجتمع على اختلافها في المساهمة في تهيئة البيئة الآمنة للتثقيف الواعي، فالمجتمع ككل يحتاج إلى كسر حاجز الصمت والخوف من مناقشة هذه المواضيع في بيئة آمنة تحفز الشباب على طرح أسئلتھم والحصول على إجابات صحيحة من مصادر موثوقة.

وهناك دور حيوي وهام للإعلام، بحيث يتم عن طريق وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي تقديم وعي حول التربية الجنسية السليمة، لا اللجوء لتقديم إعلام جنسي بمعلومات جافة وقد تكون خاطئة، فالمقصود والمنشود هنا التربية الجنسية كمنظومة متكاملة تشمل تقديم المعلومات وغرس القيم الأخلاقية والتأكيد على الضوابط الاجتماعية، لكونها ما يشكل رؤية الطفل المستقبلية تجاه الجنس وتحدد موقفه.

وختاماً،

إنّ الثقافة الجنسية ليست ترفاً فكرياً أو صيحة من صيحات الغرب، إنّما هي ضرورة حياتية وشرعية، فديننا الحنيف لم يترك شيئاً إلا وبيّنه، وموضوع الجنس والعلاقات الإنسانية جزء لا يتجزأ من هذا البيان، فعندما نربي أجيالنا على الفهم الصحيح لهذه المواضيع، فإنّنا نحميهم من الانحراف والخطأ، ونعدّهم لحياة زوجية سعيدة ومستقرة، وعندما نلتزم الصمت، ونألف السكوت والتجاهل، فإنّنا نتركهم فريسة للمعلومات الخاطئة والممارسات المدمرة.

فالهدف ليس منع الأخطاء وحسب، إنّما بناء جيل يفهم جمال العلاقة الزوجية كما شرعها الله، جيل يقدر النعمة الإلهية في خلق الشهوة ويحسن توجيهها، جيل يعيش حياة متوازنة بين الروح والجسد، بين الدنيا والآخرة، لذلك فإنّه من الضروري إدخال الثقافة الجنسية في إطار التربية الأسرية منذ مراحل الطفولة المبكرة، وذلك بما يتوافق مع عادات مجتمعنا وقيمه، فهذه الثقافة لبنة أساسية في بناء فردٍ واعٍ، وأسرةٍ متماسكة، ومجتمعٍ صحي.

فما مأساة العريس الذي قتل زوجته ليلة الدخلة إلاّ راية حمراء بوجوب وجود توعية صحيحة حول هذا الموضوع، فكم من مأساة أخرى كان وما زال يمكننا منعها إذا ما تحلينا بالشجاعة للحديث عن الحقّ دون خجل أو مواربة؟

فالخيار بين أيدينا: إمّا أنْ نكسر جدار الصمت ونتحدّث، أو نبقي أسرى لثقافة الكتمان ونتحمل عواقب الجهل، والله المستعان.